

القطُّ

تأتي الصبايا إلى حفرة عميقة فيها ماء كالزفت، يحملن الجراكن فوق حوايات دائرية من القماش، تراقص رقبة كل صبية مع جركنها، دون أن تسنده أو تمسه بيديها، رغم قطرات المياه الوسخة التي تتسرب إلى أنفها وفمها. ثلاثة أشواط وربما سبعة، على حسب وسخ المياه في الدار، وقد تأتي عربة المجاري لتصب ماءها الأخضر هنا، ويعلو طنين الذباب والحشرات، وتكثر فيها الأمراض حتى يردمها الحاج عتمان القط ويسكنها ويعمرها، ويصبح اسمها جورة أولاد القط. وفي جورة أولاد القط لا يهم إن كان الميزان عادلاً، الشيء المهم أن ترى كفة تطب، ويطب معها قلب صاحبته. طبة ميزان تُجَرِّي لعابك الناشف وتشعرك بالشبع. ستجول هنا وهناك، تنصت جيداً لتسمعها وتدور عينك بين أروانات وطشوت، تجلس أمامها زوجات القطط، فضية مملوءة باللحم والحلويات، نساء يجلسن بجلاليب

فاقعة، لها صدور مستطيلة منقوشة، تلتصق بها روائح ننته. لو دقت النظر سترى أرواحاً عالقة، سبعة حيوانات وربما تسعة، تتناثر بين الأروانات. بين الأرواح امرأة تسند رأسها وتشمر ذراعيها، تكشف عن شعيرات ناعمة فوق جلدها الغامق وهي تزن لحم الرأس، وفي الركن امرأة أخرى تبيع لحم القلب، وأمام عتبة خضراء تجلس امرأة ثالثة تنتف قربة ماعز وتجردها جيداً. واحترس من بائعة الممبار، فهي لا تضحك أبداً. تستطيع أن تعرفها بشعيرات أنفها. هي لا تموء مثلهن، تكتسي بالسواد، ولا تكتحل منذ وفاة زوجها الأول، الابن البكري لأولاد القط. حول رقبتها كيس يمتد إلى صدرها، اسمها أم خالد. إذا أردت مناكفتها، فامدح خالدًا. قل عوده فارغ كعود أبيه، وشرطة عينيها الخالق الناطق، وراقبها - بعد ذلك - وهي تمرش أمعاء الخاروف كبقعة موز التصقت بقميص ابنها. الآن قلبها وتغسلها، ولن يطول الوقت حتى تتخلص من نتانتها، تفركها بالملح الخشن، وتغسلها بماء غزير من خرطوم جوار عتبتها. تسمع طبة ميزانها تدب بقوة، وبعد أن تلتقط الكيس من يدها تسابقك أنفاسك، حتى تصل بيتك مرفوع الرأس بغنيمتك الكبرى، وقد تقابل في الطريق خالدًا، يمسك المصحف ولا يراك، ولا يهتم بوجودك من الأصل.

اللوح لا بد أن يكون محفوظاً، يمشي في الطريق على سلخة ترابية تحدها أنيوتين، يجري الماء فيهما مع أفراخ الضفادع، يقرأ الآيات بصوت مسموع "وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ

وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ". يردد دون النظر إلى المصحف، ومع كل مفردة مميزة يثني إصبعًا؛ النفس، العين، الأنف، الأذن، السن، والقصاص. يمر على بيوت سيجت الزرع وأناس يضربون الأرض فيصنعون قوالب منها، يرصونها فوق بعضها ويحوطنون عشة من أعواد الحطب المجدول. يصل إلى بيت عمر ابن الشيخ، يختلس النظر فيرى الأخت تركب على ظهر أخيها. يركل الأرض مثل خروف، فتعلو ضحكاتها. يشم خالد رائحتها الجميلة، لِيَّة خروف عفنة تسيح على النار تعكرها، لا يعرف مصدرها. تصرخ الطفلة بلذة "سندبح الشيخ سيد في العيد"، فيتذكر الشيخ، واللوح، والنفس، والعين، والسن والفلكة، فيتابع الطريق. يصل إلى سور السلخانة، يشم رائحتها النتنة. على جدرانها أياذٍ من دم، عظام لحمها متآكل، أرواح تحب الحياة؛ تخرج في المساء فتسود ليل السائرين جوارها، تؤنسهم تركب على حميرهم، عجلاهم، تداعب نسوانهم، وتلقي النكات عليهم فتضحكهم أو تميتهم من شدة الضحك. تعود في الفجر إلى الجدران أو تعلق داخل السلخانة. يراها خالد مغروسة على خطاف ثنائي مع الخرفان والبهايم، يسمع همساتها "كن رحيماً بنا وتعلم الذبح!". يتأمل أجسادها الغريبة ويلمح على خطاف جسد عمر معلقاً، دم أزرق يسيل من رقبتة. خط رفيع يشق الطريق ممتزجاً بدم الذبح. تتلاشى الخيالات على سكين موضوع على رقبة خالد، يهمس العم "الآن، تسرق السكين روحك"، يلتف فيراه يضحك منتشياً بروائح الدم. جزار لم تلده ولادة، رحيم على الذبائح،

لا ترى يده من فرط خفتها، لكنها لا تُفزع خالدًا. هنا داخل السلخانة لا يعرف غير الدماء والرؤوس المبتورة، يراها دون فزع، أما خارج جدرانها فيتذكر الفلكة والذبائح المعلقة على خطافها.

ركض إلى الطرمبة ووضع المصحف على حوضها، أمسك يدها كما يمسك الفأس وضغط؛ فأخرجت الماء من فمها. قبل المصحف ثلاثًا، وردد اللوح، النفس، العين، الأنف، والفلكة.. الفلكة. وظل يرددها حتى وصل إلى الكتّاب. نزل درجتين، سمع أصوات القراء مطمئنة ومخيفة، أخذ نفسًا وعدل من هيئته. ألقى نظرة على أظافره المقروضة، دخل وحده، وترك الخوف بالخارج. جلس على مصطبة بعيدة عن الجدار الضعيف، راجع اللوح مرة أخرى، البداية مربكة، ستة أشياء، أولها النفس والقصاص آخرها، والفلكة تقع في مكان ما. كان كالمسبح على أنامله، يغمض عينيه فيرى الذبائح تجلس على المصاطب وتصطف أمام الشيخ، أحدهم يمسك بالمصحف ويصح اللوح للآخر، وآخرون يسندون الجدار الضعيف بمخالبهم. يأخذ دوره في الطابور. الشيخ يجلس على كرسي في المنتصف، يقترب خالد من لبنات الجدار والفلكة. يسمع عمر يقول "تعال". يقف أمامه مرتعشًا والمصحف وراء ظهره، يبدأ في تلاوة اللوح ويرى صورًا، تومض هنا وهناك، أرواح تقفز على الجدران، تهزها بقوة وهي ترتل الآيات. أعواد السقف تكاد أن تقع، الجدار الضعيف يتهاوى، عنزة صغيرة تصح لوحتها تمتد إليها سكين، تحررها فتزق مع الأرواح. وسوسة تهمس بالآيات، النفس،

العين، القصاص، الفلكة. يستمع إليها، يهمس معها، ويسمع مأمأة عمر، والقلم الأحمر ييقع المصحف. ولم ينج من القلم، من اللوح المحفوظ، من النسيان والفلكة. قدماه مرفوعتان أمام الشيخ، وصوت يأتي من مكان ما "أمك جاءت إلى أبي بالأمس"، الصوت لعمر، فماذا يقصد؟ وماذا يريد؟ "أرادت حجاباً يقربك من عمك"، صوت العصا يتداخل مع الهمسات "هل أنت غاضب من عمك لأنه ينام على فراش أبيك؟"، بركان في رأس خالد لا يخمد. لم يصرخ، عار على الرجل أن يصرخ، أن يبكي، الشيخ يضرب بعصاه فتتفلق الصور؛ شبح أبيه يقترب، وعمر معلق في سقف السلخانة، والعم يسن السكين في الظلام وينتظر اللحظة المناسبة، والعم جزار لم تلده ولادة، رحيم على الذبائح، لا ترى يده من فرط خفتها، ولم يرها أبوه عندما سقط مذبوحاً. حاول خالد المقاومة، رفس الفلكة صارخاً وتمرغ في الأرض مثل حمار ملبوس.

بقدمين متورمتين مشى عائداً مع الطريق، إلى محل الجزارة. يجرحهما بمشقة، يستقبله عمه بقلم على قفاه وسؤال على أمه. يعلمه تقطيع اللحم، كيف يمسك الساطور بثقة، ويضرب اللحم بحدة، واللحم من عنده مخلوط بالعسل، والشورية ترم عظام المتعيين. كريم وكفته تطب بمقدار وهيئة الزبون، وزبائنه ليسوا ممن يشتهون اللحم فقط، فهناك الهامسون؛ الباحثون عن العظم، وهم المفضلون لدى خالد. يعرفهم كما يعرفون أبناءهم، عندما يقبل أحدهم متثاقلاً، يساعده بانتقاء ماسورة جيدة، يفصلها عن روحها

ويلفها في كيس أسود، ويعطيها للرجل. بعد انتهاء العمل، يمر خالد على بيت الرجل، ويشم رائحتها، يميزها، وأحياناً يراها تذوب مع الملح والبصل، في نار عميقة، ويرى مخالبتها تخربش جدار الإناء، تحاول الهروب، وفي كل مرة تشدها المخاطيف فتنزلق إلى القاع، تثبتها، تكتفها، وتكتم أنفاسها ثم تهدأ ويهدأ خالد.

بعد صلاة المغرب عاد إلى البيت، استقبلته أمه بقطعة مخ غارقة في الملح والكمون، ملفوفة في رغيف من القمح الأبيض. وجد عمه يمسك بريموت التلفزيون، يجلس في المندرة مرتدياً الصديري والكلسون. شعر بالشبع، وفي الغرفة أتاها زعيق سريرهما النحاسي. اقترب من بابها، حاول التنصت، لم يسمع غير آهات، وشم رائحة لبن ممتزج بالدماء. قفز الدرج مبتعداً إلى سطح البيت، جلس قرب الفراخ والبط، بجانب طبق الدش الكبير. أحس بسواد يأكل روحه، تذكر ابنة الشيخ، رائحتها الغريبة الحلوة وغمازة خدها الأيسر. ذهب ذات يوم إلى بيتهم ليوصل اللحم والممبار، فأخذت الأكياس وهي تسد أنفها. ووقف كالشحاذ، على عتبة بابها، في انتظار الحساب. علت بقبقة البط في العشة فانتفض خالد مختنقاً. في الحلق صوت محشور، صارخ، وصدر فارغ. سمع صوتاً، منادياً في الشوارع "الله، الله، الله". يعرف هذا الصوت، ربما يكون أبوه، يتموج مع الدراويش وينشد دون أن يتألم. نزل إلى الشوارع، جرى وراء الأشباح والخيالات والأصوات، ولم ير في الحضرة أحداً.

مع أذان الفجر عاد إلى البيت. التقط المصحف، وبَلَّ ريقه بكوب عصير. حذق في جلباب أبيه المملوء بالقطن، ومشى في طريق السلخانة وسط صباح الديكة وزقزقة العصافير، يردد الآيات بصوت مسموع "وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ". وصل إلى باب الكتاب، نزل الدرجتين، تنفس اللوح كما الهواء المنعش. نظف صدره، لم ينظر إلى فلكة الشيخ وعصاه، ولا الأشباح التي تسند الجدار الضعيف. مشى وسط الحظيرة بثقة، قدماه تعرفان الطريق إلى الشيخ، ومنها إلى ابنه الجالس بالقرب منه، ورآه برأس خروف. "تعال"، قالها مرة أخرى، بهدوء، بسلام. لن يستمع خالد إلى وسوسة القراء، بعد اليوم، لن يسمح لعمر أن ييقع مصحفه مرة أخرى، وبنجاح اكتمل لوح خالد وأخذ لوحًا غيره ليسمعه غدًا.. أخبره عمر أن أمه وضعت الحجاب في حجرته. جلس بجانبه وطمأنه قائلاً "كل شيء سيكون بخير". في هذه اللحظة ظهرت أخت عمر، بشعرها الغجري ورائحتها الجميلة، أشارت إلى أخيها فتركه وذهب إليها. كانا ينظران إليه بازدراء، وفي غفلة من عمر، لم ير السكين ينسل، لم يشعر بيده من فرط خفتها، كان مثل جزار لم تلده ولادة، وكان رحيماً.